مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

الدور السياسي للفقهاء في بلاد المغرب الإسلامي
فقهاء عصر المرابطين في الدور الصحراوي مِثَالاً
440-462هـ /1049-1070م

الأستاذ : أحمـــــد شارف
جامعة الجلفة

ملخص :

غرقت بلاد المغرب الأقصى -بعد سقوط دولة الأدارسة- في مشاكل متعددة، صراع سياسي داخلي وصراع خارجي، أديا إلى تدهور في جميع مجالات الحياة، واستمرت هذه الحالة فترة طويلة، أدت إلى فوضى كبيرة وركود تام.

ولم يرض كثير من أعلام البلاد عن هذه الأوضاع، وكانت مبادرة العلماء والفقهاء المبادرة الأبرز لانتشال البلاد من الفوضى وكان على رأس هؤلاء ثلاثة فقهاء هم أبو عمران الفاسي، والفقيه وِجاج بن زلُّو اللمطي والإمام عبد الله بن ياسين، كل من مقامه ولكل دَوْرُهُ.

هؤلاء الفقهاء كان لهم دور كبير في إحياء البلاد والعباد وِفق تعاليم الدين، وإقامة دولة استطاعت أن توحد العُدوتين، وأن تحيي فريضة الجهاد في الأندلس وتُوقِفَ الزحف الصليبي على المسلمين.

الكلمات المفتاحية: الدور - السياسة - الفقهاء - المرابطين

Abstract :

After the fall of the Idrisid state, the Far Maghreb sank into multiple problems, internal political conflict and external conflict, which led to a deterioration in all areas of life, and this situation lasted for a long time, which led to great chaos and total stagnation.

Many of the country's flags were not satisfied with these conditions, and the most prominent initiative of scholars and jurists

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

was to extract the country from chaos. At the head of these were three jurists: Abu Imran Al-Fassi, the jurist, Hajj bin Zallu Al-Lamti, and Imam Abdullah bin Yasin, both of his station and for his role.

مقدمة

إذا أمعنا النظر في بحوث الفقه الإسلامي ومجالاته، يمكن لنا أن نصطلح على الفقه بأنه قانون الحياة الإسلامية فهو شريعة للدين وقواعد للدنيا، ويمثل الفقه الجزء الأكبر في الثقافة الإسلامية، ولذلك بيّن الإسلام مكانة الفقه وحث على أخذه، ومن بين النصوص التي جاءت في ذلك قوله تعالى:[وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ] (التوبة122) ففي الآية دليل على أن الاشتغال بالفقه واجبٌ حتى في أيام الحرب، فما بالك في أيام السلم لارتباط الفقه بالفرد والجماعة والدولة في جميع جوانب الحياة.

في هذه الورقة البحثية أسعى إلى استقصاء دور الفقيه في الحياة السياسية، ولعل دولة المرابطين تمثل النموذج الأبرز لدور الفقهاء، الذين أسهموا في وضع أسسها، وشرعوا لها في جميع أدوارها حتى إنهم كانوا عاملاً من عوامل سقوطها، ولقد تباينت الدراسات الحديثة والآثار القديمة في تقييم دور الفقهاء بين الدور الإيجابي والدور السلبي، وبدوري أرى أن دور الفقهاء كان إيجابياً في دور تأسيس الدولة، وهو الدور الصحراوي، لكن الفقهاء الذين جاؤوا فيما بعد خاصة في الدور الاندلسي لم يستطيعوا مواكبة التطورات الحاصلة على الساحة، فكان أثرهم سلبياً.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

وما سنحاول معرفته هنا هو دور الفقهاء في الدور الصحراوي وهو دور تأسيس الدولة فنطرح السؤال: فيما تمثل الأثر السياسي لفقهاء عصر المرابطين في الدور الصحراوي؟

وقبل أن نتطرق لهذا الموضوع نتعرف على أحوال المغرب الأقصى قبل ظهور دولة المرابطين، ثم نعرج على أهم الأسماء من الفقهاء الذين أسهموا وأثّرُوا سياسياً في بناء الدولة.

1- أوضاع المغرب الأقصى قبيل المرابطين:

عاش المغرب الأقصى في ظل الأدارسة مرحلة التأسيس للدولة المستقلة، فكانت بذلك حالة الاستقرار من فتن الخوارج التي كانت تعصف ببلاد الاسلام[1] وأصبحت فاس عاصمة العلم والثقافة، ومهدت لقيام حضارة[2] حتى إن المؤرخين لخصوا دور الأدارسة بقولهم إنهم بدؤا ما أتمه المرابطون والموحدون من حضارة[3]

واستمر حكم الأدارسة طيلة الفترة (172-363هـ/ 788-974م) إلا أن دولتهم سقطت اِثر هجومات الفاطميين الشيعة، ودخلت بذلك بلاد المغرب الأقصى عصراً جديداً ميزته الفوضى وعدم الاستقرار، بسبب الصراعات على السلطة

(1) حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، دار الفكر العربي، د تا ، ص: 15.

(2) قَالَ ابْن خلدون قَامَ يحيى بن مُحَمَّد بن إِدْرِيس بِالْأَمر وامتد سُلْطَانه وعظمت دولته وَحسنت آثَار أَيَّامه واستبحر عمرَان فاس وبنيت بهَا الحمامات والفنادق للتجار وبنيت خَارِجهَا الأرباض ورحل إِلَيْهَا النَّاس من الثغور القاصية، قصد إِلَيْهَا النَّاس من الأندلس وإفريقية وَجَمِيع بِلَاد الْمغرب، ومن مظاهر الحضارة ما قامت به فاطمة الفهرية -وكانت من وفد من القرويين- من بناء مسجد القرويين أشهر معالم فاس الخالدة، وكان ذلك سنة خمس وأربعين ومائتين . انظر: ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408 هـ - 1988 م، 20/4.

(3) حسن أحمد محمود، **المرجع السابق**، ص: 15.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

وتُعَدُّ هذه المرحلة من أكثر المراحل تدهوراً في تاريخه، واستمر ذلك إلى حين ظهور المرابطين، واصطلح على هذا العصر ب: "عصر العواصف"[1] ودامت هذه الفترة حوالي قرنين من الزمن، وكانت أهم مميزات هذه الفترة، فوضى وحروب وتخريب وهجرات وحالة عدم ارتياح في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، حالة خلفتها الدولة الشيعية الفاطمية وراءها، فلما انتقل الفاطميون إلى المشرق، تنازعت السلطة بقايا الشيعة الفاطميين، والقبائل المغربية الزناتية (مغراوة وبنويفرن) وصنهاجة المغرب الأوسط والنفوذ الأموي الأندلسي في بلاد المغرب [2]

ورغم أن الفتنة البربرية التي ظهرت في الأندلس أسقطت الدولة العامرية، وأنهت نفوذهم في بلاد المغرب الأقصى، وتخلص المغاربة من هيمنة العامريين لكن الأوضاع في المغرب الأقصى لم تعرف استقرارا، إذ انتقل الصراع بين المغاربة وبين غيرهم من الفاطميين والأندلسيين إلى صراع بين القبائل المغربية، فوقعت حرب بين اليفرنيين والمغراويين، تميزت بالحدة والطول، ما أدى إلى اضطراب الأوضاع وتفشي المجاعة والغلاء والأمراض، يعبر عن ذلك ابن عذاري قائلاً: «جرت بين ذلك أمور وخطوب لا يحسن ذكرها لشناعتها» [3] واستمرت الحرب بين الزناتيين، إلى بداية ظهور المرابطين، فدفعت هذه الحالة فقهاء سجلماسة

(1) حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته**، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع ،1992، مج1، 13/1.

(2) انظر مظاهر الصراع في المغرب الأقصى، السلاوي الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح: جعفر الناصري/ محمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، 255/1.

(3) ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج.س.كولان وليفي برفنسال، دار الثقافة، ط2، 1980، 254/3.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

ودرعة إلى الاستنجاد بعبد الله بن ياسين لنجدتهم وإقامة العدل فيهم ورفع جور أمراء زناتة .

2-الأثر السياسي لفقهاء المغرب:

من خلال قراءة تاريخية لنشاط الفقهاء في دولة المرابطين نصنف هؤلاء الفقهاء إلى صنفين، الصنف الأول: فقهاء مؤسسين للدولة ومنظرين لها عاصروا فترة بداياتها الأولى، والصنف الثاني فقهاء عرفتهم الدولة المرابطية مع مرحلة قوتها وامتدادها في المغرب والأندلس.

المجموعة الأولى من الفقهاء، هم الذين خططوا للمشروع وبدؤا الأعمال الأولى في التنفيذ وفي هذه الفترة لم تكن الظروف مواتية للتأليف، فلم يترك هؤلاء الفقهاء تراثاً مسطوراً يؤرخ لفكرهم، بل كان جُلّ تراثهم واقعاً معاشاً عملاً وتوجهاً

وهؤلاء الفقهاء هم: أبو عمران الفاسي، ووجاج بن زلُّو اللمطي وعبد الله بن ياسين الجزولي، وهم من الفقهاء المغاربة

أما المجموعة الثانية من الفقهاء المؤثرين في الدولة فجلهم أندلسيين الذين عاصروا انتشار الدولة وقوتها إلى سقوطها، وهم الذين عاصروا التدوين.

ولذلك رأيت أن نؤرخ للفقهاء المغاربة الثلاثة من خلال سير أعمالهم، فقد اشتغلوا بالعمل لا بالكتابة، فكانت لهم أعمال كثيرة ومواقف شهيرة في مجال السياسة والتغير والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويأتي في مقدمة هؤلاء:

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

1-2: أبو عمران الفاسي:

أبو عمران موسى بن عيسى بن يَخُجْ الفاسي الغفجومي الزناتي، وكنية يَخُجْ أبو حاج الفاسي فقيه أهل القيروان في وقته وتوفي بها وكان قد سمع بالمغرب من جماعة من العلماء من فاس وهو بلد بالمغرب في أقصاه يقارب سبتة ورحل وسمع بالمشرق [1]

ينتسب الفاسي (ت 430 هـ) إلى بيت من بيوتات فاس الكبيرة [2] من قبيلة زناتة درس على فقيه السوس "عثمان بن مالك" في عهد استقلت مغراوة الزناتية عن الدولة الأموية، وبسطت سلطتها من فاس حتى سجلماسة وأغمات وعاش الفاسي الاضطرابات التي خلفها الواقع السياسي وهيمنة مغراوة على الأوضاع ما دفعه إلى المعارضة والتنديد، رافعاً راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3] وكانت هذه الاضطرابات وراء تركه فاس وانتقاله إلى القيروان.

أعمل الفاسي الرحلة منذ صغر سنه بين القيروان وقرطبة ومكة والعراق فكانت رحلة علمية التقى فيها بعلماء المغرب والمشرق ولذلك حظي بالدراسة على

(1) بن ماكولا ، سعد الملك، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا (ت 475هـ) الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، ط1 ، 1990م ، ص: 63/7.

(2) المزيد حول ترجمة أبي عمران الفاسي انظر: عياض، ترتيب المدارك، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح: سعيد أحمد أعراب 1981-1983م 7. /243 -254. الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي – القاهرة، 1967 م457.

(3) حماه الله ولد السالم، الأصول الفكرية للدعوة المرابطية، مجلة الجامعة المغاربية، س5، ع9، الرباط، ص: 116-117.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

يد أعلام من كل الأقطار ومن هؤلاء: أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتى البزاز[1]

يسمي لنا الحميد عدداً من مشائخ الفاسي قائلاً: ««ومن مشايخه بالأندلس أبو الفضل أحمد بن قاس بن عبد الرحمن صاحب قاسم بن أصبغ، وأبو زيد عبد الرحمن بن يحيى العطار، وأبو عثمان سعيد بن نصر، وسمع بالقيروان من أبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي وغيره، وبمصر من أبي الحسين عبد الكريم بن أحمد ابن أبي جدار وغيره، وبمكة من أبي القاسم عبيد الله بن محمد بن أحمد السفطي وغيره، والعراق من أبي الفضل عبيد الله بن عبد الرحمن الزهري وغيره»[2]

وكانت هذه الفترة (آخر القرن الرابع ومطلع الخامس) تشهد أُفول المتغلبين الشيعة (البويهي 334هـ-447هـ) و(القرامطة 287هـ-470) وظهور الفكر الأشعري السني، فالتقى الفاسي بشيخ الأشاعرة أبي بكر الباقلاني، الذي برز في الدفاع عن قضايا أهل السنة ضد التيارات الأخرى فدرس على يديه وتأثر به وقال عنه: « درست الأصول في المغرب ولما انتقلت إلى المشرق كنت كمن لم يدر س شيئا)) فتأثر بالفكر السياسي للباقلاني، وحمل معه هذا الفكر إلى المغرب ليوظفه في عملية التغيير الذي يظهر لنا فيما بعد في المشروع المرابطي»[3]

(1) الحميدي، محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحَمِيدي أبو عبد الله بن أبي نصر (المتوفى: 488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر – القاهرةن 1966 م ، ص: 141.

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، ص:.383

(3) العروي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، مجمل تاريخ المغرب، 111/2.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

لم تستطع قبائل الملثمين إيقاف التهديدات الوثنية، رغم التحالفات التي أقامتها، وبداية من القرن الخامس تضررت هذه القبائل لاستهداف القبائل الوثنية لمصالحا الاقتصادية، فسُلبت تجارتها وجفت أراضيها، وهلكت مواشيها، فتولى أبو عبد الله محمد بن تيفاون اللمتوني الذي وصف بالصلاح والفضل والجهاد[1] واختار القائد شعار الجهاد في سبيل الله، لنشر الإسلام السني، إلا أنه توفي بعد ثلاث سنوات من توليه زعامة الحلف الصنهاجي، فخلفه صهره يحي بن إبراهيم الجدالي [2] الذي استطاع أن يعرض قضية قبائل صنهاجة أمام علماء المغرب ويستقدم معه عبد الله بن ياسين.

ويعتبر الجدالي صاحب البذرة الأولى للدولة المرابطية، تميز بروح المسؤولية والنظر البعيد، أنكر الواقع المعاش، وبحث عن الإصلاح ووسائله ورجاله، رأى أن إصلاح الأوضاع لا يكون إلا بتوحيد كلمة القبائل الصنهاجية، تحت راية الدين الإسلامي الصحيح، وقد يكون مطلعاً على التحولات السياسية والحضارية في المشرق الإسلامي، ما جعله يأمل في الإصلاح، فوجد أنه مناسباً أن يعرض قضيته على أبي عمران الفاسي أثناء قفوله من أداء مناسك الحج، فاختار المرور عبر القيروان، وكان في استطاعته أن يسلك مسالك قريبة دون طريق القيروان، ولكن همه السياسي الوحدوي جعله يبحث ويسعى إلى أن اهتدى إلى أبي عمران الفاسي

أشارت كتب المناقب والآثار والنوازل أنّ هناك آثاراً مكتوبة للفاسي إلا أن هذه الآثار في حكم المجهول، والظاهر من كتب الفتاوى والنوازل أن له شأناً كبيراً في

(1) ابن أبي زرع، الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، ، 121.

(2) حول رحلة الجدالي للحج ولقاءه بأبي عمران الفاسي انظر: بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي ، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحصارة، دار الطليعة للطباعة و ولانشر، ط1، 1994.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

الفقه والحديث ما جعل فتاويه تشمل كل مناحي الحياة، بما فيها الفتوى السياسية التي جعلته يتصدر ففقهاء العصر في بلاد المغرب وحتى القيروان [1] وأورد الونشريسي في موسوعته الفقهية بعص أثار الفاسي منها التعاليق، والدلائل والأضداد [2]

سعياً منه في إصلاح الأوضاع الديني والسياسي والاجتماعي، قام الفاسي بأعمال متعددة ومن بينها تكوين الفقهاء لحمل راية الإصلاح، وتحمل أعبائها، فتخرج على يديه علماء عديدون كان لهم أثر كبير في سياسة الدولة ومن بين الذين أخذوا عنه العلم الفقيه أبو محمد عبد العزيز التونسي، وأبو إسحاق التونسي الذي نشر تعاليم الجهاد والمرابطة وعاصره أيضا أبو بكر المرادي الحضرمي الذي لزم أمير المرابطين، وألّف له كتاب الإشارة في تدبير الامارة [3]

1-1-2 الثورة والخروج عند الفاسي:

منذ فترة إقامته في فاس والفاسي يسعى إلى التغيير، فأي تغيير يريد؟ على الرغم من أن المذهب المالكي يشدد في مسألة الخروج عن الحاكم، إلا أن مواقف الفاسي كانت تتضمن فكر الثورة على الوضع القائم بدليل تشهيره بتجاوزات الحكام الزناتيين وتسلطهم على الرعية وهاجر إلى القيروان يحمل هذه الأفكار يعلمها لتلامذته.

(1) جبرون، امحمد، الفكر السياسي في المغرب والأندلس، ط1، دار أبي الرقراق، الرباط، 2008. ص: 103.

(2) الونشريسي، أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والمغرب والأندلس ، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1981.

(3) حماه الله، المرجع السابق، ص: 116-117.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

ويرى الباحث ولد السالم أن مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عرف الفاسي تتجاوز النهي عن اجتماع أهل الزهد الذين يجمعون بين القراءة للقرآن وتلاوة أخبار الصالحين، وإنشاد الشعر، وهي حلقات كرسها وتغاضى عنها المغراويون لقد كان الفاسي يرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تغييراً للوضع السائد[1]

إلى جانب ذلك فهو لم يُقِر بمشروعية سلطة المتغلب والمتغلبين الذين كانوا في فاس وأنحاء المغرب[2] هل نجده في هذا يعارض الموقف السني الذي أقر سلطة المتغلبين أمثال الإمام الماوردي؟ قد يكون التباين في الظروف بين البيئتين في المشرق والمغرب هو الذي يتحكم في الموقف، فالماوردي رأى الاعتراف بسياسة الأمر الواقع ولا سبيل لإنكار هذه الأطراف المتغلبة رغم التباين المذهبي، بين المتغلبين من البويهيين الشيعة، والسلطة العباسية السنية، وخاصة وأن هذه الفترة هي فترة التفوق الشيعي.

إلا أن في حالة موقف الفاسي فإن الوضع يختلف، فقد شهد العصر عودة المذهب السني للساحة ولا يمكن الاعتراف بالوضع القائم، ولذلك كان يحث على استئصال الإمارات الجائرة سواءً أكانت زناتية مثل إمارة مسعود بن وانودين الزناتية أو غيرها في برغواطة وسجلماسة [3]

(1) حماه الله ، المرجع السابق، ص: 118.
(2) جبرون، المرجع السابق، ص: 106.
(3) ابن ابي زرع، الانيس المطرب، 127.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

2-1-2الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يروي ابن عذارى[1] ذلك الحوار الذي دار بين الفقيه أبي عمران الفاسي والأمير يحي بن إبراهيم زعيم جدالة الحوار يُنْبِئُنَا بملامح عن الفكر السياسي للإمام أبي عمران، وشملت أسئلة الفقيه مواضيع تتعلق بالواقع الذي تعيشه المنطقة، والعلاقة بين القبائل، وعن طبيعة المذاهب والتيارات المناوئة، للمذهب المالكي، وأدرك الفاسي من إجابات الجدالي أن المنطقة رغم تحدياتها قابلة لممارسة الدعوة، وأن المشكل الذي تعاني منه هو تفشي الجهل، والبعد عن تعاليم الدين الإسلامي الصحيح وهذا الوضع يتطلب عملاً مشروعاً يستند إلى فكر إصلاحي يتضمن الجهاد[2] يظهر ذلك من إشارته لضرورة قتال طائفة برغواطة ببلاد السوس وقتال قبيلة زناتة، على جُورِها وظُلمِهَا، وإنهاء إمارتهم[3]

لكن الفقيه كان بعيداً عن المنطقة، فقد وجه الزعيم الجدالي إلى وجاج بن زلُّو اللمطي صاحب رباط نفيس في إقليم السوس [4] فمن هو وِجاج بن زلُّو وفيما تمثل دوره؟

2-2: وجاج بن زلُّو اللمطي ومدرسة الرباط:

لا تذكر كتب التراجم سوى شيئاً بسيطاً من سيرة الفقيه وِجَاج بن زلُّو اللمطي، نشأ وجاج[5] على يد فقيه أغمات المدعو "ابن تيست" أبو محمد بن عبد الله ويذكر أن هذا الفقيه وتلامذته من الذين حملوا راية الجهاد للقضاء على

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، تح: إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت، 7/4.
(2) حماه الله، المرجع السابق، ص: 119.
(3) مجهول، بيوتات فاس، ص: 28.
(4) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 123.
(5) عند ابن خلدون "وكاك" وهناك من يكتبها وجَّاج . انظر: ابن خلدون، تاريخ، 243/6.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

الطوائف الضالة كبرغواطة، عاملا على إصلاح الوضع السائد فكان يعتمد في عمله على المرابطة ونشر العلم والقيام بالجهاد(1) ولا شك أن لهذه القيم أثر بالغ الأهمية في توجيه الفكر السياسي لوجاج.

وتوجه وجاج إلى فاس فاخذ العلم على يد أبي عمران الفاسي [2] ليتشبع بفكره القائم على الإصلاح، التعليم والجهاد، ولم يُعمل الرحلة كشيخه أبي عمران بل عاد قافلاً إلى إقليم السوس ليزاول نشاطه التعليمي التربوي.

فأسس رباطه الذي سماه "دار المرابطين" ليتولى نشر العلم والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكوين العلماء وكانت هذه الدار منارة للعلم وقبلة للعلماء، تخرج منها علماء كثر ذكرتهم كتب التراجم والسير ومن أشهرهم عبد الله بن ياسين والاخوان الجزوليان: أبو القاسم وسليمان ابنا عذرا، الأول من أصحاب وجاج والثاني من القائمين على أمر المرابطين [3]

وتخرج على يديه علماء من قبائل المغرب المختلفة، وكان من بين هؤلاء أيوب بن محمد وتومارت بن تيدي المصموديان ولمتاد بن نفير اللمتوني، الذي كانت له علاقة وثيقة بالمرابطين، فهو الذي كانت له فتاوى بقتل زعيم المغراويين في سجلماسة [4]

وتجسيداً لهذا الفكر الإصلاحي الجهادي فقد قام وجاج بتنفيذ طلب شيخه الفاسي في إنفاذ من يتولى حركة التغيير والإصلاح في الصحراء، واختار لرفقة الأمير

(1) حماه الله، المرجع السابق، ص: 120.
(2) العلوي الهاشمي الفاسي، مرجع سابق، ص: 242.
(3) عياض ترتيب، المصدر السابق، 80/8.
(4) عياض ترتيب، المصدر السابق، 80/8.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

يحي بن إبراهيم الجدالي أحد طلبته النابهين العالمين بخبايا الصحراء، إنه عبد الله بن ياسين [1]

وبقي وجاج يمارس فكره الإصلاحي للوضع القائم من خلال فتاويه التي يرسل بها إلى زعماء الصحراء، بوجوب التزام الدين والجماعة، وعدم الخروج عن الإمام المصلح، وظل يرقب الوضع ويحث ابن ياسين على الصبر والتحمل، وهدد بعقوبة القتل على من يخرج عن طوع الإمام [2] وهذا يدلنا على أن كلمة الإمام الفقيه وجاج بن زلُّو كان لها نفوذ وصدى في الصحراء.

إن هذه الأعمال والمواقف التي كان يقوم بها الفقيه وجاج بن زلُّو تنبئنا بفكر إصلاحي تعليمي يسعى إلى إقامة وضع سياسي واجتماعي جديد يقوم على تعاليم الدين الصحيح، فكر يعتمد التربية والجهاد أسلوباً من أساليب التغيير المنشود في المنطقة، ولا غرو إذ إن هذه الاعمال غالباً ما تجتمع في مؤسسات الربط التي قامت في البلاد الإسلامية شرقا وغربا فكان للرباط والأفكار التي ينتشر فيها تأثير كبير في فكر وأعمال فقيه ومؤس دولة المرابطين عبد الله بن ياسين.

2-3:عبد الله بن ياسين مجسد المشروع الفكري السياسي المرابطي:

2-3-1النشأة والتكوين:

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن بسر بن علي الجزولي (ت451هـ/1060م) ينتمي إلى قبيلة جزولة القاطنة على حدود البلاد السنغالية، وينحدر من أسرة

(1) ابن ابي زرع، الانيس المطرب، 123

(2) ابن عذارى، البيان، 9/4.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

علم، وينسب إلى أبي عثمان بن ميمون بن ياسين فقيه المصامدة ومفتيها الكبير، فهو سليل العلم والولاية، ورضيع المجد والعرفان كما وصفه القاضي عياض[1]

ولا تذكر المصادر شيئاً عن نشأته سوى أنه رحل في شبابه إلى الأندلس عام 399هـ/1009م، مكث فيها سبع سنين يطلب العلم من علمائها، وهناك صادف الاضطرابات التي بدأت تعصف بالأندلس[2] وأدرك الحالة المزرية التي تمر بها العدوتان، فوقف على بداية التفكك الأندلسي على يد ملوك الطوائف، أما بلاد المغرب الأقصى فقد تقاسمتها الأهواء، والنزاعات والأطماع فكان بنو يفرن بسلا وأغمات وتادلا، والمغراويون بفاس، والبرغواطيون بتامسنا، والخزريون بسجلماسة، وبنو حمود بطنجة وسبتة(3) طوائف مختلفة تتنازع الأمر بالمغرب، وعصر سادت فيه الفوضى بفعل غياب سلطة حقيقية.

درس عبد الله بن ياسين في رباط وجاج بن زلُّو اللمطي[4] فتأثر بفكره وآرائه الإصلاحية وسيرة حياته[5] فسار على نهجها في تنفيذ مشروعه السياسي، وكان ابن ياسين يتنقل بين القبائل المغربية، ويجلس إلى شيوخها، محاوراً وسائلاً عن أحوالهم، مناقشاً لأوضاعهم، يتدرج بهم في فهم الإسلام[6] وكان من بين القبائل

(1) عياض، ترتيب المدارك، 81/8. محمد التاودي بن سودة، أبو محمد عبد الله بن ياسين، مجلة دعوة الحق، س17، ع1، ص135.

(2) جبرون، مرجع سابق، ص: 110.

(3) محمد التاودي بن سودة، المرجع السابق، 135.

(4) ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في الاخبار المراكشية، تح: سهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البضاء، ط1، 1979، ص: 20.

(5) بن بية، الأثر السياسي للعلماء في دولة المرابطين، جامعة أم القرى، 1997، 45.

(6) ابن سماك، المصدر السابق، 20, حسن احمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص: 119.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

التي زارها وجلس إلى شيوخها مصمودة وجدالة ولمتونة فكان يحث على الأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

دخل ابن ياسين رفقة يحي بن إبراهيم الجدالي أراضي الملثمين، فكان الأول يمثل السلطة الروحية والثاني يمثل السلطة السياسية، فشرع ابن ياسين في جملة من اللقاءات مع أشياخ قبائل الملثمين، وشرع في الإصلاح العقدي والأخلاقي، فدعا إلى المساواة بين السادة وغيرهم في المسكن والملبس، وأنكر عليهم مظاهر القتل والسرقة(1)

ومن بين الحوارات التي حفظها التاريخ – في لقائه بمشائخ مصمودة- سألهم عن أحوالهم فأجابوه باقون على الإسلام الصحيح، لكنه استغرب عدم وجود سلطة سياسية يقودها إمام وفق أحكام الشريعة فأجابوه أنهم يرفضون الانقياد والطاعة لقائد ينتمي على جماعة أخرى(2) ولهذا رأى الإمام وجوب إقامة إمام لسياسة المنطقة وحفظ استقرارها، وتأمين مجتمعها، ومشكل غياب السلطة والتنازع عن السلطة كنا قد أشرنا إليه في البداية، هو الذي كان يؤدي إلى التنازع والفوضى بين القبائل وحتى داخل القبيلة الواحدة وبين القبيلة وجيرانها من القبائل الاخرى، ولذلك جعل ابن ياسين نصب عينيه ضرورة إقامة الأمراء في القبائل التي بث فيها سلطانه.

(1) أحمد شارف، السلطة والمجتمع بالأندلس في عصر المرابطين، مذكرة ماجستير، الجزائر، 2008، 38.

(2) حماه الله، مرجع سابق، ويذكر ابن عذارى أن المصامدة كانوا في اقتتال فيما بينهم، انظر: البيان، 4/ 10.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

2-3-2: التدرج الإصلاحي في فكر ابن ياسين السياسي(مرحلة الدعوة):

بدأت هذه المرحلة منذ أن وصل ابن ياسين إلى الصحراء وانتهاءً بتأسيس الرباط وتكوين الجماعة واقتصرت هذه المرحلة على التعليم والتوجيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باستخدام اللسان وعظا وإرشادا ولعل ظروف المرحلة تحكمت في هذا النهج، فأراد أولا أن يقيم الحجة، على من يدعوهم، فاتصل بأكبر القبائل، يعرض عليهم دعوته ويحثهم على التزام الدين الصحيح، ولما يئس منهم ونبذوه انتقل إلى المرحلة الثانية، شرع في إعداد العدة وتكوين القوة، استعدادا لمرحلة القتال،

وشمل التعليم في سياسة ابن ياسين العقيدة والفقه، فيعمل على تصحيح المعتقدات، وتصويب العبادات، وشرع في إرسال الرسل إلى القبائل فندب لكل قبيلة رسول يعلمهم أمور دينهم، وحين تعرض للصد أخرج ابن ياسين بنفسه وجمع أشياخ قبائلهم، وقرأ عليهم حجة الله، ودعاهم إلى التوبة، ورغبهم في الجنة وخوفهم من النار، فلما يئس منهم قال لأصحابه: قد أبلغنا في الحجة وأنذرنا وأعذرنا وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله.

واصطحب الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي الإمام ابن ياسين إلى قبيلة جدالة واجتمع حوله جماعة بلغت سبعين رجلاً يتعلمون ويتفقهون على يديه، وأمضى الجداليون فترة طويلة منقادين لعبد الله بن ياسين[1] وأمرهم ببناء مدينة لهم ففعلوا واستمروا على هذه الحال، حتى نقموا عليه فثاروا ضده، وهدموا داره، وأخذوا ماله، فخرج متستراً[2] وهمّ بالعودة إلى رباط نفيس ولكن الظاهر أن هناك

(1) ابن عذارى، البيان، 8/4
(2) البكري، المسالك، 165،166.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

من أشار عليه بالانزواء في جزيرة هو وأتباعه فاقتنع بذلك وانتهى الأمر بتأسيس رباط وسمى أصحابه بالمرابطين الذين سيكونون النواة الأولى لدولة المرابطين، وشرع في تعليم هؤلاء المرابطين، لرفع راية الإسلام السني[1] وكان إلى جانب التعليم الديني تعليم عسكري يشمل فنون القتال، إعداداً لهم للجهاد في سبيل الله.

الاهتمام بالتعليم الديني والتعليم العسكري يُبَين السياسة التي سيتبعها ابن ياسين في تغييره للأوضاع سياسة تجمع بين الدعوة بالتعليم والترغيب والترهيب، واستعمال القوة في مواجهة المُعارضين له.

2-3-3: المرابطـــة والجهـــاد:

حين أدرك عبد الله بن ياسين أن هذه القبائل لن تستجيب لدعوته الإصلاحية، قرر أن يغير منهجه نحوهم وأن يقوم بإعلان الجهاد ضدهم، فلا يمكن إخضاع هذه القبائل إلا بالقوة، وذلك ليس غريباً خاصة وإننا نعلم أن فتح بلاد المغرب لم تتم إلا بعد مدة طويلة وقِتال مرير مع الأمازيغ الذين عُرِفوا بصعوبة الاستجابة للاسلام.

وكان قد اجتمع لعبد الله بن ياسين من أشراف صنهاجة نحو ألف رجل سماهم المرابطين للزومهم رابطته وهذه التسمية تشير إلى الانتقال من التأثير القبلي إلى التأثير العقدي، أي انتقال الولاء إلى العقيدة بدل القبيلة [2] وهذا الولاء من شانه أن ينهي خصومات الزعامة، ويوحد الصفوف، ويحقق الأهداف، وهذا مالم تحققه الأحلاف الصنهاجية السابقة.

(1) ابن عذارى، البيان، 9/4.
(2) بن بية، المرجع السابق، 51.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

ولما تفقهوا ورسخ فيهم الدين، قام فيهم خطيباً فوعظهم وشوقهم إلى الجنة، وخوّفهم من النار، وأمرهم بتقوى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم جزائه للمجاهدين، وقال لهم: يا معشر المرابطين إنكم اليوم جمع كثير، نحو ألف رجل، ولن يُغلب ألف من قلة، وأنتم وجوه قبائلكم، ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم، بأن تأمروا بالمعروف وأن تنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في الله حق جهاده، فقالوا له: أيها الشيخ المبارك مُرنا بما شئت، تجدنا سامعين لك مطيعين، ولو أمرتنا بقتل آباءنا لفعلنا، فقال لهم: اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته، فإن تابوا فخلوا سبيلهم، وإن أبوا عن ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين[1]

فبدأ أولا بقبيلة جدالة فغزاهم حتى انهزموا بين يديه وقتل منهم خلقا كثيرا، وأسلم الباقون إسلاما جديدا، وكان ذلك في صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة[2]

ثم سار إلى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقاتلها حتى ظهر عليهم، وأذعنوا إلى الطاعة، وبايعوه إلى إقامة الكتاب والسنة، ثم سار على قبيلة مسوفة، وبعد قتال بايعوه فلما رأى ذلك سائر قبائل صنهاجة سارعوا إلى التوبة والمبايعة، وإعلان السمع والطاعة. واستمر في ذلك حتى وافته المنية في قتاله لقبيلة برغواطة في تامسنا 451هـ

(1) ابن ابي زرع، الأنيس المطرب، 125
(2) الناصري، الاستقصاء، 9/2.

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

خاتمـــــة:

إذا أردت أن أُقيِّم دور الفقيه في السياسة فإنني أجد أن هؤلاء الفقهاء عملوا على نقل أوضاع البلاد من حالة الفوضى والانقسام والتشتت إلى حالة الوحدة والنظام والقوة، واستطاعوا أن يتحملوا أعباء ومسؤوليات مجتمعهم، فعملوا كل من موقعه على المساهمة في إصلاح وتوجيه الأوضاع السياسية، تطبيقاً لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويظهر لنا الأثر السياسي للفقهاء فيما يلي:

-التركيز على التعليم والتكوين لفئة من رجال المغرب والصحراء ليتحملوا أعباء حمل رسالة نشر العلم، وثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة فكان أبو عمران الفاسي ووجاج بن زلُّو اللمطي، وعبد الله بن ياسين الجزولي مِثالاً بارزاً عن هذه الفئة من الرجال الفقهاء.

-نشر قِيَم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة من خلال التعليم في الأربطة، والتنقل بين القبائل، والحث على التزام تعاليم الدين الصحيحة (عقيدة وفقها) وإلغاء التقاليد والعادات الجاهلية.

-مجاهدة القبائل التي رفضت التزام الدعوة، فاستعمل الفقهاء – بعد إقامة الحجة- استعملوا القوة في إخضاء القبائل لسلطة الدين، وإقامة دولة وِفق تعاليمه

استطاع عبد الله ابن ياسين أن يجسد مشروع الدولة ويقضي على الأوضاع السابقة، فأرسى معالم دولة المرابطين على ثلاثة أسس رئيسية، أساس روحي تمثل في الدعوة الإصلاحية وفق المذهب السني، هو يمثل عنصر الهوية والانتماء الديني، وبه استطاع أن ينقل هذه القبائل المتناحرة فيما بينها إلى قبائل موحدة،

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2020/03/17، تاريخ القبول: 2020/06/15، تاريخ النشر: 2020/06/16

والأساس البشري المتمثل في اتحاد قبائل صنهاجة، وهذا الأساس يظهر في الجانب العسكري الذي قاد الفتوحات جنوبا وشمالا، أما الأساس الثالث فتمثل في الأساس المادي المالي القائم على السيطرة على طرق تجارة القوافل الصحراوية .

هؤلاء الفقهاء كان لهم دور كبير في إحياء البلاد والعباد وِفق تعاليم الدين، وإقامة دولة استطاعت أن توحد العُدوتين، وأن تحيي فريضة الجهاد في الأندلس وتوقف الزحف الصليبي على المسلمين.

لكن هذه الدراسة شملت عينة من الفقهاء في مرحلة واحدة من المراحل التي تمر بها الدولة، فهل بالضرورة أن يكون إسهام الفقهاء دائماً إيجابياً في الجانب السياسي؟ وبعبارة أخرى هل بالضرورة أن يكون القيام بمبادرة الإصلاح تحت شعارات ومسميات الإصلاح الديني يؤدي إلى نتائج ناجحة؟

المنارة للاستشارات